راحيل تنشب مخالبها

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

راحيل تنشب مخالبها - الرياض

٤٤ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٧-٠٧-٤٠-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٨٢٣

رقم الإيداع: ٢٢/١٨٢٣ ردمك: ٧-٠٧-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَفَ الْمُعَلِّمُ الْمَهِيبُ يُعْلِنُ لتَلاميذه نهَايَةَ الْعامِ الدِّرَاسيِّ، وبدَايَةَ عُطْلَةِ الصَّيْفِ الأُولَى من نَوْعِهَا في حَيَاةِ الْمَدْرَسَةِ القُرْآنية. وكان ذَلك سنة ١٩٤٥.

وَقَامَ التَّلاميذُ، فَأعَادَهُمْ إِلَى مَقَاعِدهم بإِشَارَةٍ منْ يَدهِ يَعْرِفُونَهَا، وَبنَظْرَةٍ حَادَّةٍ تَعَلَّمُوا بالتَّجْرِبَة أنْ يَحْتَرِمُوها. فَقَعَدُوا، عَلَى مَضَضٍ، ليُعَانُوا مَا سَوْفَ يَتْلُو عَلَيْهِمْ منْ مواعِظَ.

وَلَمْ يَكُنْ يَعْنيه منْ تَلاميذِ الفَصْلِ غَيْرُ مُصطَفَى ولَدِ القايدِ، كَانَ متوجِّهاً بكَامله إِلَيْه، وهذَا يحاولُ بجَميعِ الوسَائلِ أنْ يصرف عَنْهُ نَظَرَاتِ المعَلِّمِ، أوْ يُرَاوِغُهَا كما كان يَفعَلُ مَعَ كُلِّ مَا يُضَايِقُهُ. وَمَا أكْثَرَ مَا كَانَ يُضَايِقُه! فَقَدْ كَانَ عَنيفَ الطَّبْعِ، ضَيِّقَ النَّفسِ، قَويًّا كالعجْلِ المُتَوحِّشِ!

وَأعْطى المُعَلِّمُ إِشَارَتَهُ بالانْصِرَافِ لتَلامذَته، مُحركاً رأْسًا يَائسًا في اتِّجَاهِ مصْطَفَى الذي كَانَ يُقْفلُ محفَظَتَه المُهَلْهلَةَ للمَرَّةِ الألْف! وَيُحرِّكُ رُكْبَتَيْه في عَصبيَّةٍ مَكْبُوتَة.

وَأخيراً، انْفَتحَ بَابُ الفَصْلِ عَلَى مصْرَاعَيْه، لتَخْرُجَ منْهُ كُتْلَةٌ بَشَرِيَّةٌ مُلْتَحِمَةٌ، كَانَت إِلَى حينٍ جَمَاعَةً منَ التَّلاميذِ

جَالسينَ إِلَى طاولاتِهم في أدَبٍ وَنظَامٍ، وكَأنَّ النَّارَ اشْتَعَلَتْ فَجْأةً في أدبَارِهم!

وَنَزَلَ في مُقدِّمتِهم مُصطَفى وَلَدُ القَايدِ من الطابقِ الثالثِ للمدرسةِ كَصَارُوخٍ اختَلَّ تَوَازُنُهُ، فمرَقَ في كُلِّ اتِّجَاهٍ! كَانَتْ أسْنَانُهُ تَصْطَكُّ منْ هيَاجِ الفَرْحَةِ العَارمَةِ بحُرِّيَّةِ الصَّيْفِ الأولَى في حَيَاتِه، وتَحوَّلَتْ إلى هسْتيريَا لا إرَاديةٍ أرعَدَتْ فَرَائصَهُ، وجَعَلَتْهُ يُطْلِقُ صَرَخَاتٍ حَادَّةً منْ حُلْقُومه كَصَفيرٍ يُصِمُّ الآذَانَ!

وَمَرَّ في طَريقِه بدَرْبِ الصيَّاغين، فَصَرَخَ في أُذنِ النقايري[١] العَجُوزِ، (بلْقَلْعي)، وَهُوَ مُستغرِقٌ في نَقْشِ حليةٍ دقيقَةٍ حَتَّى كَادَ يَصْعَقُهُ!

ثُمَّ الْتَقَى صَديقَه، فَانْطَلَقَا يُقْفِلانِ أبوَابَ دكَاكينِ الخَرَّازينَ وَاحدًا بَعْدَ الآخَرِ، حَتَّى اجتَمعَ خَلْفَهُمْ جَيْشٌ جَرَّارٌ من أصْحَابِ الدكَاكينِ مُسلَّحينَ بالْعِصي والأحْذيةِ وَ(القراميل)[٢] و(السَّبَاسي)[٣].

---

(١) صانع حُليّ الفضة.

(٢) القرْميل: منضدة ثقيلة يشتغلُ عليها خراز البلَغ.

(٣) السبسي: غليون طويل نحيل لتدخين الكيف.

وانتَهَى الْمَطَافُ بِمُصْطَفَى إِلَى سَاحَةِ «جَامعِ الزَّكُّوري»، فَوَجَدَ أمَامَهُ يَهُودِيَّةً سَمِينَةً تَتَهَادَى كَالْبَطَّة وَعَلَى يَدِهَا صِينِيَّةُ حَلْوَى، في طَرِيقِهَا إِلَى الْفُرْنِ، تَحْتَ أعْيُنِ صِغَارٍ وكِبَار أجْحَظَهَا الْحِرْمَانُ منَ الضَّرُورِيَّات، دَعِ الْكَمَالِيَّات.

وَدَخَلَ مُصْطَفَى تَحْتَ صِينِيَّةِ الحَلْوَى فَرَفَعَهَا بِرَأسِهِ مِنْ فَوْق يَدِ اليَهُودِيَّةِ بِطَرِيقَةٍ مَاهِرَة! وَبَقِيَ يُوَازِنُهَا عَلَى جَبِينِهِ وَقِمَّةِ رَأسِهِ، وَيَمِيلُ بِطَرِيقَةٍ بَهْلَوَانِيَّةٍ منْ يَمِينِ الشَّارِعِ لِيَسَارِه، واليَهُودِيَّةُ تَصِيحُ في أعْقَابِه، لا تَعْرِفُ أتَتَوَسَّلُ إِلَيْه، أمْ تَشْتُمُهُ مِنْ خَوْفِهَا عَلَى مَصِيرِ صِينِيَّتِهَا، وَهُوَ يُؤَرْجِحُهَا كَمَا تَفْعَلُ فَقْمَةُ السِّيرك، مُحَرِّكًا رَأسَهُ، وكَأنَّهُ مُسْتَقِلٌّ تَمَامًا عَنْ بَقِيَّةِ جَسَدِه، وَيُنَادي:

«آوْلادْ سِيدي أحْمَد آمُوسى[1].»

«أمولايْ إبراهيم طَير الجبَال.»

وَاجْتَمَعَ للتَّفَرُّجِ عَلَيْه عَدَدٌ كَبِيرٌ من الصِّبْيَانِ لَفَظَهُمْ كُتَّابُ

---

(١) رجل صالح كان يدرب الأطفال على الألعاب البهلوانية (السيرك) قديمًا لكسب رزقهم.

(جَامعِ الزَّكُّوري)، فَخرَجُوا يَتزَاحمُونَ عَلَى بَابه، كَالْخرفَانِ، في جَلابيبِهمْ الصوفيَّةِ، ورؤوسِهم الحَليقَةِ.

وَبَدأ هُوَ يُغَنِّي، وَيَعْزِفُ بيَدِهِ عَلَى محْفَظَتِه، وَبقَدَمَيْه الحَافَيتيْن، عَلَى بلاط الأرْضِ بإيقَاعِ رَقْصَتِهِ، وَاليَهُوديَّةُ تحُاولُ اخْتطَافَ الصِّينيةِ، وَهُوَ يُراوِغُها.

وَرَدَّدَ مَعَهُ الصِّغَارُ الأغْنيّةَ مُصَفِّقينَ للإيقَاعِ..

وَخَرَجَ فَقيهُ الجَامعِ، فَلَمْ يَكَدْ يُدْرِكُ حَقيقَةَ المَوْقفِ حَتَّى صَاحَ في مصْطَفَى زَاجِراً، آمراً لَهُ أن يُعيدَ صينية الحَلْوَى إلَى صَاحبَتِها.

وَلَمْ يَلْتَفتْ إلَيْه مُصْطَفَى، بَلْ ظَلَّ يَدُورُ بسرْعَةٍ حَولَ نَفْسِه، وَهُوَ يُزَغْرِدُ مُعْلِناً اقْترَابَ النِّهَايَة العُظْمَى.

وَرَأى الفقيهُ في ذَلكَ تَحَدِّياً سافراً لأوَامره، وسُخْرِيَةً منْ جَلالِ قَدْرِه، فَتَحَرَّكَ نَازِلاً الدَّرجَاتِ الثلاثَ إلى السَّاحَةِ، وَفي عَيْنَيْه شَرَرٌ وَوَعيدٌ!

وَتَجاهَلَهُ مصْطَفَى حَتَّى أنْهَى دَوَرَانَهُ، ثُمَّ تَوَقَّفَ فَجْأةً، وَانْتَظر أنْ تَسْتَقرَّ الصِّينيةُ عَلَى جَبينه، ثُمَّ نَظَرَ إلَى الْفَقيهِ مُتَسَائلاً في بَرَاءَةٍ:

- تُخَاطِبُني أنَا، نَعَمْ آس..؟[١]

وَلَمَّا ضَاقَتِ المَسَافةُ بَيْنَهُمَا، تَرَاجَعَ مُصطَفَى قَائلاً بطَاعَةٍ وامْتثَال:

- هَاهيَ، نَعَمْ آس...

وَبِحَرَكَةٍ قَويَّةٍ منْ عُنُقه أرْسَلَ الصِّينيَّةَ في الهَوَاءِ، فَأسْرَعَتِ اليَهُوديَّةُ والفَقيهُ إلى تَلَقُّفهَا. ومَا كَادَتْ تَسْتَقرُّ بَيْنَ أيْديهِمَا حَتَّى صَاحَ مصْطَفَى صَيْحَتَهُ المَشْهُورَةَ:

«اللَّعبَات وَالقَلْبَات والسِّنْتْرُو والغولْ!»[٢]

وَبقَلْبَةٍ إنْجليزيَّةٍ خَطف الصِّينيةَ بقَدَمه اليُمْنَى منْ بَيْنِ الأيْدي، فَانْتَشَرَتْ قِطَعُ الحَلْوَى في فَضَاء السَّاحَةِ، وامتدَّتِ الأيْدي الصَّغيرَةُ لالتقَاطِهَا، قَبْلَ الْوُقُوعِ عَلَى الأرْضِ. فَالحَلْوَى حَلْوَى قَبْلَ الفُرْنِ وبَعْدَه.

وَهَوَت الصِّينيَّةُ عَلَى رَأس الفَقيه، لتَسْقُطَ عَلَى قَدَم اليَهُوديَّةِ! وَهَمَّ الفَقيهُ بمُطَارَدَة مصْطَفَى، لَوْ أنَّهُ فَقَطْ عَرَفَ أيَّ اتجَاهٍ سَلَكَ، فَوَقَفَ وَعَيْنَاهُ يُمْكنُ إشْعَالُ سيجَارَةٍ منْهُما!

---

(١) نعم آس: اختصار نعم سيدي.

(٢) السينترو: التمريرة في كرة القدم باللغة الإسبانية والغول: الهدَف.

اسْتَأْنَفَ مُصْطَفَى وَلَدُ القَايدِ طَرِيقَه نَحْوَ مَنْزِله تَارِكًا خَلْفَهُ ذَيْلاً طَوِيلاً مِنَ التَّعَاسَةِ والْغَضَبِ والْغَلَيَانِ وَدَعَوَاتِ المَظْلُومِينَ!

* * *

وَفي صَبَاحِ الغَدِ رَبَطَ مُصْطَفَى خَيْطَ الصَّيْد في قَصبَته، وأدلاهَا من فَوْق السَّطْح إِلَى الشَّارِعِ، وَنَزَلَ خَلْفَهَا مُتَسَلِّقًا البَابَ حَتَّى لا تَرَاهُ أمُّهُ فَتكَلِّفَهُ بسُخْرَةٍ..

وَمَا كَادَ يَضَعُ قَصَبَتَهُ عَلَى كَتفِه، حَتَّى انطبقتْ عَلَى رُسْغه قَبْضَةُ (أبا العَرْبي المُعكْرَط المَخْزَني[1]) الشَّبيهَةُ بالأيدي الفُولاذيَةِ في المُختبرَاتِ الذَّريَّة. وَرَفَعَ عَيْنَيه ليَرَى وجْهَ (أبا العربي المعكْرط) الذي لم يُطْلَقْ عَلَيْه هَذَا الاسمُ هَبَاءً. رآهُ يَنْظُرُ إِلَيْه بعَيْنَيْن شبْهِ مُغْمَضَتَين، وَعَلَى وجْهه المُسْتَدير أثَرُ بَسْمَةٍ لم يَدْرِ مصْطفَى هَلْ كَانَتْ تَرْحيبًا أمْ تَشَفِّيًا.

وَبالطَّبْعِ كَانَ رَدُّ فعْلِ مصْطَفَى الأوَّلُ هُوَ محَاوَلَةَ الفكَاكِ منَ القَبْضَةِ الصَّماءِ بكُلِّ وَسيلَةٍ، وَفي أقْرَب وَقْتٍ! فَحَاوَلَ انْتزَاعَهَا، وَلَكنَّهُ عَدَلَ عَن ذَلكَ حينَ أحَسَّ أنَّ ذراعَه بأكْمَلهَا

---

(١) مساعد الحاكم المحلي.

كَـانَـتْ تُوشِكُ عَلَى الانْخـلاعِ. وَالْتَـجَـأَ إِلَى العَـرْبَدَةِ والصُّـراخِ والْقُـعُـودِ عَلَى الأرْضِ والتَّـمَـرُّغِ، وَمُـحَـاوِلَةِ التَّـعَلُّقِ بِكُلِّ مَا تَقَعُ عَلَيْـهِ يَدُهُ الأُخْـرَى، دُونَ جَـدْوَى، وَدُونَ أنْ يَعْـبَـأَ (أبا العـربي المعَكرط) بِذَلكَ؛ إِذْ بَدَأَ يَتَحرَّكَ وَيَسْحَبُهُ خَلْفَهُ كَخَرُوفِ عِيدٍ مُشَاكِسٍ.

وَحِينَ لَمْ يُجْـدِ الصّـراخُ وَالضَّـجـةُ التَـجَـأَ مُـصْـطَفَى إِلَى العنْفِ، فَدَخَلَ بِرَأسِـه في بَطْنِ (أبا العربي) فَأصَابتْ (بَزِيم)[1] مَضَمَّته[2]، دونَ أنْ تُزَعْزِعَ جُثَّتَهُ المُرَبَّعَةَ الثَّقيلَةَ كَالدَّبَّابَةِ! وَلَمَّا لَمْ تُجْـدِ (الرُّوسِـيَّـةُ)، انقَضَّ عَلَى اليَـدِ الْمُنْطَبِـقَـةِ عَلَى رُسْـغِـه فَغَـرَزَ فِـيهَـا أَسْنَانَهُ. وَهُنَا نَزَلَتْ عَلَى فَكِّه صَـفْـعَـةٌ حَـدِيدِيَّةٌ من يُسْـرَى (أبا العَـربي) الْمُسْـتَـدِيرَةِ الثَّـقِيلَةِ كَـفَـرْدِ رَحَى، « فَـدَاخَ » وانْقَلَبَـتْ عَيْنَاهُ، وَوَقَـفَ لِيَمْـشِي هَادئًا إِلَى جَـانِـبِ (أبا العَـرْبِي) المَخْـزَنِيِّ. وَلَـمْ يَسْتَـعِـدْ تَمَامَ وَعْـيِـه إِلاَّ أَمَامَ البَـاشَـا الَّذي كَـانَ جَالسًا عَلَى كُرْسِيِّ حُكْـمِـه الفَخْمِ في صَدْرِ قَاعَةِ المحْكَمَةِ.

* * *

---

(١) مربط الحزام المعدني.

(٢) الحزام التقليدي.

كَانَ البَاشَا العَجُوزُ يَدْرُسُ مصطَفَى ولدَ القَايدِ؛ لِيَضَعَهُ في مَكَانِه من النَّمَاذجِ البَشَرِيةِ التي عَرَفَ في السَّبْعينَ سنَةً التي عَاشَهَا، وَقَضَى أغْلَبَهَا في الْحُكْمِ، وَالتَّمَرُّسِ بطَبَائعِ النَّاسِ؛ فَقَدْ رَأى نُسَخًا عَديدَةً منْ هَذه الطَّبْعَة السَّرِيعَة.

وَأخيرًا، تَنَحْنَحَ البَاشَا، وَخَاطَبَ رَاحيلَ اليَهُوديَّةَ بصَوْتٍ خَافتٍ، فَتَقَدَّمَتْ ليَرَاهَا مُصْطَفَى، لأوَّل مرةٍ منْ بَيْنِ الحَاضرينَ في الْقَاعةِ، وَهِيَ تَمُدُّ أُصْبُعَهَا في وَجْهِه، والشَّررُ يَخْرُجُ منْ عَيْنَيْهَا لتَقُولَ وَهِي تَزُمُّ شَفَتَيْهَا بعَصَبيَّةٍ:

– هُوَ هَذَا!

وَنَظَرَ إِلَيْه البَاشَا، فَأجَابَ مُصْطَفَى في الْحَالِ:

– واللّه، نْعَمْ آسْ، مَا أنَا!

وَتَقَدَّمَ الشُّهُودُ، أوَّلُهُمْ الفَقيهُ الغَاضبُ، فَأيَّدَ اليَهُودية.

وَجَاءَ رَدُّ مُصْطَفَى بنَفْسِ التَّأكيدِ:

– وَاللّه مَا بالْعاني(١)! كُنْتُ أجْري فَقَطْ فَاصْطَدَمْتُ بهَا.

وَجَاءَت الْكَارثَةُ مَعَ الشَّاهدِ الثَّالثِ، وكَانَ هُوَ (حَمَايْدَة)

---

(١) أي ما بالقصد.

الطَّرَّاحَ الذي حَضَرَ مسْرحيَّةَ مصْطَفَى وَرَاحيلَ، وكَانَ أكْثَرَ الْمتفرِّجينَ تَصْفيقًا وَتَشْجيعًا. وَالآنَ، وَأمَامَ البَاشَا، وَقَفَ يمثِّلُ العَمَليَّةَ منَ البدَايَةِ، وَيُقلِّدُ حَركَاتِ مُصْطَفَى بإتْقَانٍ، مُسْتَعْمِلاً القَاعَةَ كلَّها مَيْدَانًا لحَركَاته مُنْشداً في إيقاع موزون:

هَاوتَمَّا، هَاوتَمَّا

هَاوتَمَّا مَاشي تَمَّا

جيبُو لَه طَاجين دَالْمَا

بَاشْ يَغْسَلْ ديكُ اللحمة

وَحَاوَلَ مَخْزَنيٌّ زَجْرَ الطَّرَّاحِ فَمَنَعَهُ البَاشَا بحَرَكَةٍ منْ يَده، وَهُوَ يَتَأمَّلُهُ بوَجْه جَامدٍ مُحَايدٍ، وَمُصْطَفَى يَتَمَيَّزُ منَ الغَيْظِ لرُؤيَةِ الطَّرَّاحِ يَتَشَفَّى منْهُ أمَامَ البَاشَا، وَيَنْظُرُ إلَيْه بتَحَدٍّ... وَلَمْ يملِكْ أنْ أمْسَكَ بذَقَنه مُهدِّداً وَمُهَمْهِمًا بَيْنَ أسْنَانه:

- حَتَّى تَخرجَ آوَالديك!

وَنَطَقَ الْبَاشَا هُنَا مُوَجِّهًا الكَلامَ لمصطَفَى بصَوت نَاعم خَفيضٍ:

- أنْتَ صَلْيب[1] أولْدْ القَايد!

---

(1) مشاغب وقحٌ.

وَلَفَتَ انْتبَاهَ مُصْطَفَى شَبَحُ (أبا فَرَجي) الْمَخْزَنيٌّ الأسْوَدِ وَاقِفًا في رُكْنٍ بَعيدٍ، حينَ انْحَنَى عَلَى سَطْلِ مَاءٍ، فَأخْرَجَ مِنْهُ حَبْلاً مَفْتُولاً أخَذَ يَعصِرُهُ، ويُلينُهُ بَيْنَ يَدَيْه ويَنْظرُ إلى مُصطَفَى كَالجَزَّارِ يَدْرُسُ ضَحيتَهُ!

وَلَمْ يَكُنْ مُصْطَفَى رَأى منْ قَبْلُ مَا يُسَمَّى (بأزْفَل)[١] وَلَكنَّهُ سَمِعَ عَنْهُ كَثيرًا وَأحَسَّ بأنَّهُ مُطوَّقٌ مِن كُلِّ مَكَانٍ، فَبَدَأتْ غَريزَةُ الحَيْوَانِ تَسْتَيْقظُ فيه، وَنَظَرَ إلَى البَابِ فإذَا جُثَّةُ المعكرط المسْتَديرةُ تُغَلِّقُه منَ الخَدِّ للْخَدِّ! وَهُوَ وَاقفٌ بعيْنَيْنِ شبِهِ مغْمَضَتَيْن في وَجْهٍ كَأوْجُهِ الصِّينيينَ، والتفتَ البَاشَا إلى اليهوديَّة سَائلاً:

– هَلْ تُسَامحينَهُ؟

– نَعَمْ آشيدي، اليَهُودُ لا يَشْمَحُون. (تَعْني سيدي ولا يَسْمَحُونَ).

– إذَن تُطَالبينَ بمَا ضَاعَ منْك.

– وَبعُقُوبَةِ هَذَا الوَلَدِ السَّايبِ. إذَا لَمْ يُرَبِّه أبُوهُ فَالمخْزَنُ[٢]

---

(١) حبلُ الضرب والجَلْد.

(٢) الحكومة.

يُرَبِّيه! اللّه يَجْعَلُ البَرَكَةَ في شيدي المَخْزَن...

وَنَقَلَ الْبَاشَا عَيْنَيْه إلَى مُصْطَفَى الذي كَانَ كُتْلَةً من الْمَشَاعِرِ الْمُتَضَارِبَةِ وَالأعْصَابِ المُتَوَتِّرة، وَقَال بصَوْت أبَوِيٍّ حَنُونٍ:

– بِمَا أنَّ هذه أوَّلُ شَكْوَى تَصِلُ بِهَذَا الوَلَدِ، وَنَظَرًا لِصِغَرِ سِنِّه رَأيْنَا ألاَّ تُوقَّعَ عَلَيْه العُقُوبَةُ التي يَسْتَحِقُّهَا عَلَى مُخَالَفَتِه، وهيَ مِائَةُ جَلْدةٍ بِالقِنَّب.

وَارْتَخَتْ أعْصَابُ مُصْطَفَى لِذَهَابِ الخَوْفِ عَنْهُ فَجْأةً، وَبَدَأ يُخَطِّطُ لِمَرحَلَةِ مَا بَعْدَ الْمَحْكَمَة. قَصَبات الصَّيْدِ مَا تَزَالُ تَنْتَظِرُ في أسطُوَانِ الدَّار، وَالأصْدقَاءُ لَمْ يَبتَعِدُوا كَثيراً نَحْوَ شاطِئِ «سيدي مغيثٍ».

وَسَمِعَ القَاضي يَسْتَأنِفُ:

– ولَيْسَ عَلَى المُشْتَكَى منْهُ إلاَّ أنْ يُعَوِّضَ اليَهُودِيةَ، رَاحِيلَ، عَلَى مَا ضَاعَ منْهَا حَتَّى تَرْضَى به، وَعَلَيْه أنْ يَقُومَ بِصِنَاعَةِ الحَلْوَى التي أفْسَدَ بنَفْسه، وَيَشْتَرِيَ لَوَازِمَهَا وَعُدَّتَهَا من كَسْبِه، وَسَيَبْقَى تَحْتَ مُرَاقَبَةِ المَحْكَمَةِ حَتَّى تأمُرَ رَاحِيلُ بِإطْلاقِ سَرَاحِه.

وَأحَسَّ مُصْطَفَى بخَطَرٍ غَامضٍ، سُرْعَانَ مَا زَايَلَهُ، حينَ رَأى عَمِّي فَرَجي يُخْرِجُ الْحَبْلَ منْ سَطْلِ المَاءِ المَالحِ.

وَأشَارَ البَاشَا إلَى المعكرط، فَانْحَنَى هَذَا صَائحًا: «سيدي!». واقْتَرَبَ من منصَّة البَاشَا، وهَمَسَ هَذَا في أذُنه شَيْئاً وَ(أبا العَرْبي) يُحَرِّكُ رأسَه، ثُمَّ رَفَعَ سُبْحَتهُ آذنًا لَهُ بالانْصرَافِ.

وَقصَدَ أبا العَرْبي مُصْطَفَى، وَأمْسَكَ بيَده، وَقَادَهُ خَارجَ القَاعَة إلَى غُرْفَة صَغيرَةٍ، فَأدْخَلَهُ وأقْفَلَ خَلْفَهُمَا البَابَ، وأشارَ إلَيْه أن يَقعُدَ عَلَى كرسيٍّ مستَطيلٍ، وَجَلَسَ بجَانبه، وَفاتَحَهُ الحَديثَ:

– هَلْ سَمعتَ مَا قَالَهُ سيدي البَاشَا؟

– نَعَمْ.

– مَاذَا تَنْوي أنْ تَفْعلَ؟

– سَأذْهَبُ إلَى أُمِّي، وَسَتَعْجنُ الحَلْوَى لليَهُودية.

وَحَرَّكَ (أبا العَربي) رَأسَه، مُغْمَضَ العَيْنَيْن، غَيْرَ مُوافق:

– مَا هَكَذَا قَالَ سيدي البَاشَا. إنَّهُ قَالَ: عَلَيْكَ أنْتَ أنْ تَعْجنَ الحَلْوَى بيَدَيْكَ!

- ولَكنِّي لا أعْرِفُ كَيْفَ!

- تَعلَّمْ.

- قَدْ يَأخُذُ ذَلكَ أيَّامًا، ورُبَّمَا أسَابيعَ!

وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ منَ القَهْرِ، وَهُوَ يَرَى عُطْلَتَهُ الجَميلَةَ تكَادُ تَعْصِفُ بهَا الأحْدَاثُ. فَرَدَّ المُعَكرط بتَهَكُّمٍ مُرٍّ:

- أبَدًا! كَيْفَ يُمْكنُ أنْ يَأخُذَ كُلَّ تلْكَ المُدَّةِ، وَأنْتَ أفْسَدْتَهُ في رَمْشَةِ عَيْنٍ؟ خَطَفْتَ الصِّينيةَ من يَدِ رَاحيلَ بلعْبَةٍ شَيْطَانيَّةٍ. كَيْفَ يُسَمُّونَهَا؟ كَيْفَ، يَا تُرَى، سَمَّاهَا صبيُّ الفَرَّانِ؟

وَرَفَعَ الْمَخْزَنيُّ وَجْهاً صينيّا سَميناً وَعَيْنَيْن نَائمَتَيْن نَحْوَ السَّقْفِ يُحَاولُ سَاخراً أنْ يَتذكَّرَ. وَأخيراً قَالَ مُنْتصراً:

- وَجَدْتُهَا! يُسَمُّونَهَا: القَلْبَة الإنْجليزيَّة!

وَصَدَرَتْ عَنْ بَدَنه الثَّقيلِ قَهْقَهَةٌ بَطيئَةٌ، أشْبَهُ مَا تكُونُ بسِلْسلَةِ انْفجَارَاتٍ صَغيرَةٍ بدَاخله، وَهُوَ يَنْظرُ إلَى مُصْطَفَى، وَقَدْ أشْرَقَ وَجْهُهُ اللَّمَّاعُ بابْتسَامَةٍ لَمْ يَدْرِ مُصْطَفَى هَلْ كَانَتْ للتَّسَلِّي أمْ للتَّشَفِّي! وَلَكنَّ نَبرَةَ التَّحَدِّي كَانَتْ وَاضحَةً في

كَلامِه.. فَحَكَّ مُصْطَفى عَيْنَيْه، وَرَفَعَ رَأسَهُ لِيردَّ عَلَى التَّحَدِّي بِمِثْلِه.

– سَأصْنَعُ لِلْيَهُودِيَّةِ حَلْوَاهَا بِنَفْسِي!

– عَافَاكَ! عَافَاكَ يا وَلَدِي. هَكَذَا يَكُون الرِّجالُ! وربَّتَ عَلَى ظَهْره بِكَفٍّ مُسْتَديرَةٍ، وَقَالَ:

– هَلْ مَعَكَ فُلُوسٌ لِشرَاءِ اللَّوَازِمِ؟

– سَأطْلُبُهَا مِنْ أبي.

وَحَرَّكَ الْمَخْزَنِيُّ رأسَهُ الْكَبيرَ مَرَّةً أخْرَى قَائلاً:

– سِيدي الْبَاشَا قَالَ: شِرَاءُ اللَّوَازِمِ يَجِبُ أنْ يَكُونَ مِنْ فُلُوسِكَ أنْتَ!

– وَلَكِنْ لَيْسَ مَعي فُلُوسٌ!

– ألَيْسَتْ لَكَ وسيلَةٌ لِلحُصُول عَلَى الفُلُوسِ؟ النَّاسُ كُلُّهُمْ يُحَصِّلُونَ الْفُلُوسَ. فَهَلْ أنْتَ أقَلُّ مِنهم قُوَّةً أوْ ذَكَاءً؟!

– وَلَكِنِّي مَا زِلْتُ تِلْميذاً في المَدْرَسَةِ. ولَيْسَ لي خِبْرَةٌ في مَيْدَانِ الكَسْبِ.

– فَكِّرْ في شَيء.

وَقَامَ مُضيفًا:

ـ أنَا ذَاهِبٌ لأتَغَدَّى. وَسَأبْعَثُ منْ يُخْبِرُ أهْلَكَ ليَبْعثُوا لَكَ بِغَدَائِكَ. الأحْسَنُ أنْ تَسْتَعْمِلَ وَقْتَكَ في التَّفْكِير في عَمَلٍ لكَسْبِ المالِ والخُروجِ من وَرْطَتكَ.

* * *

وَخَرَجَ، وأقفلَ البَابَ خَلْفَهُ بالمفتَاح. وبَقِيَ مُصْطَفَى وَحْدَه مخَدَّرًا، لا يُصَدِّقُ مَا يَرَى وَيَسْمَعُ!

وَفكَّرَ في جَميع مَنْ وَقَفُوا ضِدَّهُ في الْمُحَاكَمَة، حَتَّى الطَّرَّاحِ، وأطْرَقَ برأسِه شَاعرًا بأنَّهُ مُطوَّقٌ بكُلِّ ذَلكَ الحقْدِ وَذَاكَ الغَضَبِ الذي جَرَّهُ طَيْشُه وَجَهْلُهُ، وَرَاحَ يجْتَرُّ إحْسَاسَهُ بالاضْطهَادِ والنكَدِ.

وَمِنْ خلال دُخَانِ اليَأسِ وَالثَّوْرةِ انْبَثَقَتْ في ذِهْنه فكْرَةٌ طبَعَتْ عَلَى ثَغرِه ابتسامَةً، فَوقفَ يمسَحُ دُمُوعَه، وَيذْرَعُ الغُرْفَةَ، مقَلِّباً للفكرَةِ من كلِّ الوجُوهِ. يَا تُرَى، هَلْ سَيَقْبَلُها البَاشَا؟

قَريباً سَيَعْرفُ.

وَسَمِعَ صَوتَ مفْتَاح في البَابِ، وَعَرفَ منَ السُّعَالِ العَالي، والتَّحياتِ المتبادَلة مَعَ القَروِيِّينَ الجَاثمينَ جنْبَ بَابِ المَحْكَمَة، أن أبا العَربي المعكرط عَادَ من بَيْته. وَمَا إِن فَتَحَ البابَ حتَّى سَألَ:

- هَلْ فَكَّرتَ في وسيلَة؟

فَقَالَ مُصْطَفَى بتَفَاؤلٍ:

- إِذَا وَافقَ البَاشَا فَأنَا مسْتَعدٌّ أنْ أَصيدَ السَّمَكَ وأبيعَهُ حَتَّى أجْمَعَ الْمَبْلَغَ الْمَطْلُوبَ!

فَحكَّ أبا العربي لحْيَتَهُ القَصيرَةَ، وَفَكَّرَ قَليلاً وَابْتَسَمَ:

- أعْتَقدُ أنَّ هَذَا حَلٌّ مَعْقُولٌ؛ سَتَكُونُ قَدْ كَسَبتَ المَالَ بعَمَلكَ. أنَا لا مَانعَ عنْدي. قُمْ، إِذَنْ، وَاذْهَبْ.

ثُمَّ اسْتَوْقَفَهُ مُنَبِّهًا:

- وَلَكنَّ المَبيتَ اللَّيْلَةَ هُنَا! سَمعْتَ؟

فَحرَّكَ مُصْطَفَى رَأسَه مُوَافقًا، وَخَرَجَ رَاكضًا إِلَى دَاره، ثُمَّ عَادَ وَقَصبَتُهُ تَحْتَكُّ بالْحيطَان وَأسْلاكِ الكَهْرباءِ والنَّوافذِ وَالْمَصَابيحِ، حتَّى انضَمَّ إِلَى صَديقه رحَّالٍ بالبحرِ.

وَمَـا كَـادَ يُدلي صنَّارَتهُ حَـتَّى بدأ الجَـزْرُ، لسُـوءِ حَظِّه!
وَبَدأت الأمواجُ تنسحبُ حَتَّى بَدَأ يرى طُعْمَه تحتَ الماء.

وحَرَّكَ رحالٌ رأسَهُ غيرَ رَاضٍ:

- بَدَأ الجزر، وَهَرَبَ السَّمَكُ.

- مَاذا سَنَفْعَلُ؟ هَلْ نَذْهَبُ إِلَى الوَادي، أمْ وَرَاءَ المِينَاء؟

- أنا سَأَلْعَبُ الكُرَةَ. تَعَالَ أنْتَ كَذَلكَ. نَصِيدُ عِنْدَمَا يَبْدَأُ المَدُّ.

وَسَمِعَا ضَجَّةَ فِرَقِ المَدْرَسَة، وَهيَ تقْتَسِمُ اللاَّعبينَ بالأقدَام، فَأسْرَعَ نَحْوَهَا.

وَبَدَأ اللَّعبُ. وانْهَمَكَ مُصْطَفَى فيه لدَرَجَة أنَّهُ نَسيَ كُلَّ مَا حَوْلَهُ. وَتَحَوَّلَ العَالَمُ في عَيْنَيْه إلَى مَيْدَانٍ وكُرةٍ وَفَريقَيْن. وَتَقَاطَرَ العَرَقُ عَلى وَجهِه وَعنُقه. واحْمَرَّ خَدَّاهُ، وأخَذَتْ منْخَراهُ الواسِعَانِ يُدخلانِ من الهَوَاءِ مَا تَسْتَهلكُهُ فرقَةٌ بكَاملهَا!

وَفَجْأةً سَمِعَ أصواتًا عَاليةً غَيْرَ التي اعتَادَ أنْ يَسْمَعَهَا في المَلاعِبِ، فيهَا إنْذَارٌ وَتَحْريضٌ عَلَى الفرَار، وكَبَحَ جِمَاحَ طَاقَته

المتدفقَةِ، وبصُعُوبَةٍ أخْرَجَ نفْسَهُ من تَرْكيزهَا الهَائلِ علَى الكرةِ واللَّعب لينْظُرَ حَوْلهُ.

وَمَا كَادَ يَرْفَعُ رأسهُ حَتَّى رأى جَميعُ اللاعبينَ يُشيرونَ إليه صَائحينَ:

ـ اجْرِ! اجْرِ! سَيُقْبضُ علَيْكَ.

وَنَظَرَ إلَى مَا كَانُوا يَنْظُرون إليه، فَتَبيَّنَ جُثَّةَ (أبا العربي المعكرط) الضَّخمةَ المستَديرةَ، وهيَ تَتدحْرَجُ نَحْوَهُ منْذرةً بِسَحْقه تحتَ ثقلِهَا، ودُونَ أنْ يفكِّرَ أطلقَ سَاقَيْه للرِّيح مُرَاوغًا المخزنيَّ البدينَ، ومضْحكًا رُفقاءَه ببهْلوانيَّةٍ حتَّى أجْهَدَهُ!

ـ وَوَقَفَ (أبا العربي المعكرط) يَلْهثُ، يَكَادُ يلْفظُ روحَه، ويُحَاولُ أنْ يهدِّدَ وَيتوعَّدَ مُصْطَفى الذي كَانَ يُثيرُ «بخَوْيَاته» وفَلْتَاته، إعجَاب الفرقَتين، فَيَصيحُ جميعُ اللاَّعبينَ والمتفرجينَ عقبَ كلِّ مُراوغَةٍ:

«أولي! برَافُو!»

وكأنَّهم في مَلْعَب مُصَارَعَةِ الثيرانِ.

وَذهَبَ (أبا العربي) شَاحِبَ الوَجْهِ، مُحاوِلاً إعَادَةَ السَّلامِ

إِلَى قَلبه الثَّائر، وبَقيَ مُصطَفَى يَنْظرُ حوالَيْه غيرَ عابِئٍ (بطَبْطَبَات) رِفَاقه، وتَهَانيهمْ عَلَى إِفْلاتِه من قَبْضَة (المخْزَن).

وَحَمَلَ هُو جِلبابَه وَحِذاءَه وعُدَّة صَيدِه، وطَلَعَ ثَقيلَ الْقلْبِ، يُحسّ في بَطْنِه بوَجَعٍ غَامض من الخَوف والتَّوقُّع.

ومَا لَبثَ أنْ أحَاطَتْ به جَمَاعَة من الذينَ يُكنُّونَ لهُ عداءً قَديمًا، ومن كَان لَهُ طبعُ مصطَفى لا بُدَّ أن يَكثُرَ أعداؤُه. بَدؤوا أَوَّلاً ينظُرو ن إِلَيْه بعُيون حزينَةٍ، وكَأنَّهُمْ يودِّعُونَهُ في طَريقه إِلَى الْمشْنَقَةِ! وَفي النهَايَة، بدؤوا يُنْشِدونَ لحنًا حزينًا مرعبًا: « يَالطيف أيَا لَطيفْ..! »

وثَارَ في دَاخلِه، وبَدَأ يُفكِّرُ في الانْعتَاقِ والهُرُوب منْ هَذه الشَّرْنقَةِ التي حَاكَهَا بطَيْشه حَوْلَ نَفسه، وفكَّرَ في الهُرُوبِ إِلَى طَنْجَةَ التي كَانَتْ دَوْليةً يَوْمَئذٍ، ولكنْ أيْنَ الجَوَازُ والفلُوسُ؟ وَلا فَائدَةَ من الهُروبِ إِلَى العرائشِ، أو تطْوَانَ؛ فيَدُ البَاشَا طَويلَةٌ في تلْكَ النّوَاحي.

وَفي النَّهَايَة استَسْلَمَ.

* * *

وَمَعَ المَغْرب ذَهَبَ مُصْطَفَى يَتَأَبَّطُ (هَيدْورة)[1] ملفوفةً عَلَى حَشِيَّةِ صُوفٍ ومخَدَّةٍ إِلَى دَار (أبا العربي المعكرط)، وَوقَفَ عَلَى البَابِ يُفَكِّرُ فيمَا سَيقُولُ للرَّجُلِ الذي أهَانَ وأرْهَقَ بحَمَاقَاته وبهْلوانيَّاته. وطَرقَ البابَ، ففَتَحتْ لَهُ فَتَاةٌ في مثْل سنِّه فيها من بَعضِ ملامحِ (أبا العربي المعكرَط)، ممَّا جَعَلهُ يستَغربُ كيفَ يُمكنْ أن يأتي من شَكْل وَاحد منتَهَى البشَاعَة ومنتَهَى الجَمَالِ؟! فرغْمَ شبَهِهَا بأبيهَا، كَانت جميلةٌ بادية الذكَاءِ مع طفولةٍ بريئةٍ.

فَتَحَتْ مِصراعَ البَابِ بيَدٍ مَا تَزَالُ تكسُوهَا رغْوة الصَّابُونِ، وَوَقَفَتْ تَنظُرُ إِلَيْه.

وَنَظَرَ هُو إِلَيْهَا، فَاجَأه وَجُودُهَا في دَار (أبا العربي المعكرط) الذي كَانَ مقْترنًا في أذْهَان النَّاسِ ببَأسِ السُّلْطةِ، وَطَبَقيَّتهَا وأرستقراطيتِها المتَرفِّعَة عن عَامَّة النَّاسِ.

فوجئَ بعَكْس مَا كَانَ يَتوقَّعُ، كَانَ يَتَدرَّبُ عَلَى عبَارَات الاعْتذَارِ والاسْتعطَاف لغُولٍ جبَّارٍ، فَوجَدَ أنَّ الغُولَ بَشَرٌ لَهُ

---

(١) بساطاً من فروة كبش.

بنتٌ، تُبَاشِرُ أعْمَالَ عَامَّة النَّاس، كمَا تَفعَلُ أخْتهُ.

وابتسَمتْ هَي فَطَرَدت ظَلامَهُ ومَخَاوِفَهُ.

وبَعْـدَ لحظَة، نظَرَ إلَى مَـا تَحتَ يدِه، وتَذكَّـرَ لِماذَا جَـاءَ، فَقَالَ، بعدَ نَحنَحَةٍ:

- أبُوكِ هُنَا؟

فمَالَتْ برأسِهَا قَائلَةً:

- لا. ذَهَبَ للصَّلاة!

الغُولُ يُصَلِّي! عَجَبًا، صَدْمَةٌ أخْرَى!

- متى سَيَعُودُ؟

- قَريباً. لماذا تُريدُه؟

وهَزَّ كَتفَيْه، وتَحَاشَى نظرتَهَا البَريئةَ، وهمَّ بوضعِ حِملِه جَنبَ البَابِ والقعُودِ عَلَيْه للانْتظَارِ، ولكنَّهَا فَاجَأتهُ بقولِهَا:

- ادْخُلْ.

وتَمنَّعَ في البدايَة؛ هذه ليْسَتْ عَادَةَ أهلِ بَلدته. لا يَدْخُلُ أحدٌ بيْتَ أحدٍ إلاَّ في المَناسَبَاتِ، خُصُوصًا الصِّغَارَ لا يَدْخُلُونَ البُيُوتَ إلاَّ في المآتم، وَلكنَّ (أبا العربي المعكرط) ليسَ منْ أهْلِ المَدينة، فَعَادَاتُهُمْ إذَنْ تختَلفُ.

- ادْخُلْ، يَاللَّه. لا تَنتظرْ بالخَارجِ. عيْبٌ، أبي لا يحبُّ ذَلكَ.

وَبَعْدَ تَردُّد، حمَلَ رزْمَتَهُ وَدَخَلَ.

وَفي وسط الدَّار المربَّعِ أشَارَتْ لَهُ إلَى حَشيةٍ:

- اقعُدْ هنَاكَ حَتَّى يَجيءَ.

ووضَعَ هُو رِزْمتَهُ أمَامَهُ، وقعدَ مُؤدَّبًا ينْظُرُ حَوَالَيْه، كأنَّمَا لمْ يَركَبْ كَتفَيْه عفْريتٌ، ولَمْ يَتَقَمَّصْ رُوحَهُ ماردٌ من الشَّياطين!

وانْصَرَفَتْ هي إلَى جفنتها، وانْحَنَتْ تُصَبِّنُ، ثمّ رَفَعَتْ رأسَهَا لتَعْصرَ بَعْضَ المَلابس، وَسَألَتْ:

- لمَاذاَ تحملُ ذَلكَ الفرَاشَ؟

- سَيَأخُذُني أبُوك للحَبْسِ!

فَألْقَتْ مَا في يَدِهَا وَسَألَتْ:

- وَلَكِنْ لمَاذَا؟!

فحَكَى لَهَا عَن اليَهوديةِ وَصينيةِ الحَلوَى فَانْسجمتْ في ضَحِكٍ عَذْبٍ رقيق، وعَقَّبَت عَلَى الحَادثِ بقَوْلهَا:

– تستَاهلُ اليَهُوديةُ الشَّمْطَاءُ! لمَاذَا تَخْرُجُ بصَوَاني الحَلْوَى إلَى الشَّارعِ، ونحنُ نَشْتَري الخُبزَ بدفَاتر التَّمْوين؟! أنَا أعْرِفُهَا.

قَالتْ ذَلكَ بتَشَفٍّ، فَارْتَفعَتْ مَعْنَويَاتُ مُصْطَفَى. ولَكنَّ القَانُونَ أعْمَى، لَيْستْ لَهُ عَيْنا مُضيفَته. ومَاذَا يَهُمُّهُ القَانُونُ وَالبَاشَا و (أبا العربي) إذَا وَقَفَتْ هَذه الْمَخْلُوقَةُ الرقيقةُ البريئةُ إلَى جَانبه؟

وَوَجَدَ نَفْسَهُ يُقَهْقهُ لتَشَفِّيهَا اللَّطيفِ منَ العَجُوزِ الحَاقدَة، وَيَهْتَزُّ في مَقْعده سُرُوراً.

* * *

ولَمْ تَطُلْ مُدَّةُ سَعَادَته، فَقَدْ سمعَ صوتَ مفْتَاحٍ بالبَابِ، وَوَقْعَ أقْدَامِ حذاءِ (أبا العَرْبي المعكرط) ثَقيلاً بمَا أُضيفَ إلَى قَاعه من مَطّاطِ عَجَلاتِ السيّارَات. ومَا وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى مُصْطَفَى، حتَّى توقفَ يَنْظُرُ إلَيه بعَيْنَيْه المغُمَضَتين، دونَ أنْ ينبسَ بتَعْليقٍ.

– كَانَ سَيَنْتَظرُكَ بجَنْب الْبَاب، ولَكنَّني أدخَلْتُهُ.

وَرَفَعَتْ فُوطَةً لتَعْصرَهَا، وسَأَلَتْ:

- هَلْ سَتُدْخِلُهُ الحَبْسَ من أجْل مَا فَعَلَ بِرَاحِيلَ؟

وَخَرَجَ (أبا العرْبي) منْ صَمْتِه ليَقُولَ لَهَا بشبْه نَبْحَةٍ:

- ليْسَ هذا شُغْلَك.

وَعَادَ إِلَى هَمْسِه، وَهُوَ يَعُدُّ حَبَّاتِ سُبْحَتِه الخَشَبِيَّة وكأنَّمَا يُسَبِّحُ. وَفي النِّهَايَةِ تَنَهَّدَ وَتَلا الآيَة:

﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللَّه.

ثُمَّ تَوَجَّهَ بالكَلام إِلَى مُصْطَفَى:

- قُمْ، قُمْ يَاللَّه آبْني، هَلْ تَعَشَّيْتَ؟

وَحَرَّكَ مُصْطَفَى رَأسَهُ بنَعَمْ، وَقَامَ فَتَبعَ أبا العربي إِلَى دَار البَاشَا.

وَلَحِقَتْ به الفَتَاةُ لتَهْمِسَ في أُذنِه:

- أنَا أعْرِفُ كيْفَ تُصْنَعُ تلْكَ الحَلْوَى.

وَانْطَبَقَتْ قَبْضَةُ (أبا العربي) عَلَى رُسْغِه، وتَحَرَّكَا تَحْتَ غَبش المَسَاء.

* * *

وَقَطَعَ المخْزَني الصَّمْتَ بقَوله:

- ألَمْ تَقُلْ لي إنَّك ذاهبٌ لصَيْدِ السَّمَكِ؟!

- ذَهَبْتُ، ولَكنَّ الجَزْرَ كَانَ قَدْ بَدَأ، كَانَتْ الصِّنَارَةُ تَنْزِلُ عَلَى الرَّمْل.

- كَانَ يَجبُ أنْ تَعُودَ حَالاً إلَى دَار البَاشَا.

وَسَكَتَ مُصْطَفَى، وحَنَى رَأسَهُ مُعْتَرِفًا بجُرْمِه وانسيَاقِه للإغْرَاءِ. وأقْفَلَ (أبا العَربي) عليه بَابَ الغُرْفَة وتَركَهُ، وبَقيَ هوَ كالطَّائر السَّجين، يُقلِّبُ عَيْنَيْه في السَّمَاء الدَّاكنَة من نَافذَته، ويُنْصِتُ لأصْواتِ المَسَاءِ الْمُمْتَزِجَةِ بتَكَسُّرِ البَحْر عَلَى أقْدام القَصْر.

وسَمِعَ أذَانَ العِشَاءِ، ثُمَّ صَرِيرَ بَوَّابَةِ القَصْر وهيَ تُقْفَلُ؛ فأحَسَّ بأنَّهُ أصْبَحَ مَعْزُولاً عن العَالَم كَالغَريقِ في جَزيرَةٍ نَائيةٍ!

* * *

وَتَلألأتِ النجُومُ في سَمَاءٍ مُخْمَليَّةٍ فَاحِمَةٍ، فَقَفَزَ إلى خيَالهِ طَيْفُ الْفَتَاةِ التي رَأى في دَارِ (أبا العربي المعكرط) بكُلِّ مَا يُحيطُ بهَا من جَمالٍ ومَرَحٍ. وأغمضَ عَيْنَيْه وتَمَدَّدَ فَوْقَ

فرَاشِه مفكِّرًا فيهَا، حَالمًا بجَمَالِها حَائكًا حَوْلَهَا أحْلامَ يقَظَتِه.

وَحَاوَلَ مَرَّات أنْ يتَخَلَّصَ منْ أحْلامِه بهَا إلَى وَاقعه للتَّفْكيرِ في طَرِيقٍ للخلاصِ، فَكَانَتْ تَقْفِزُ أمَامَهُ نَاسِخَةً صُوَرَ وَاقعِه الحَالكَة.

وَنَامَ وَهي مِلْءُ عَيْنَيْهِ وَقَلْبِه وَأحْلامِه، حَتَّى أيْقَظَهُ ضَوْءُ النَّهَار، وعِراكُ امْرَأتَيْن تَحْتَ نَافذَته. فَقَفَزَ إلَى رِجْليه، وَجَرَّ الكُرْسيَّ الطَّويلَ إلَى تَحْت النَّافذَة، وَطَلَعَ فَوقَه ليَرَى مَا يَحدُثُ بالخَارج.

والتقَى وجْهًا لوَجْهٍ بصديقه رحَّالٍ الذي كَانَ يَتَعَلَّقُ، هُو الآخَرُ، ليُطلَّ عَلَيْه. جَاءَ ليُخْبِرَهُ بطَرِيقَةٍ أخْرَى لكَسْبِ الفلُوسِ:

– اسْمَعْ، نأخُذُ ألْوَاحَنَا ونَذْهَبُ إلَى (الدُّمَينَة) نَطلبُ «لَلاَّ بيضَة» (جمعُ تَبَرعَات عيْنيَّة وَماليَّة لحَفْل طُلاَّبي سَنَويٍّ).

وأخْبَر مصطفى أبا العربي بذلك، فوَافَقَ علَى المَشْرُوعِ وَفَتَحَ البَابَ لمُصْطَفَى.

* * *

وَفي المَسَاء، عَادَ الأثنَانِ يَحْمِلانِ بينَهُمَا قُفَّةً منْ أجْوَدِ القَمْحِ. وَتَنَفَّسَ مُصْطَفَى الصُّعَدَاءَ، وهُوَ يَضَعُ القُفةَ أمَامَ (أبا العَربي) في دَارِه، وقد نَزَلَ عَنْ كَاهله عبءٌ ثَقيلٌ.

وفُوجِىءَ بعَقَبَة أخرَى حينَ سألَهُ (أبا العَرَبي).

– هَلْ لَكَ فُلُوسٌ لطَحْنه؟

ولَكنَّ عَبْلَةَ بنْتَ (أبَّا العربي) سَارَعَتْ إلَى إنقَاذِه بقَوْلهَا:

– نطْحَنُهُ هُنَا.

وقَادَتْهُ إلَى بَيْت الرَّحى، فَتَبِعَهَا طَائعًا، وَجَلَسَا متَقَابلَيْن حَوْلَهَا. وَدَخَلَتْ عَلَيْهمَا أمُّ عَبْلَةَ، ثُمَّ خَرَجَتْ بَاسمَةً لنَفسهَا.

وَبَيْنَ المَغْربِ والعِشَاءِ، تَرَبَّعَ (أبا العربي) في صَدْرِ الْغُرْفَةِ الصَّغيرَة ليَحْضُرَ بِنَفْسه مع مُصْطَفَى وهُوَ يَعْجنُ الحَلْوَى بيَدَيْه ليَشْهَدَ بذَلكَ أمَامَ البَاشَا. ولَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ لعَبْلَةَ بالتَّدَخُّلِ إلاَّ بالنَّصيحَة.

وَأخيرًا، تَوَقَّفَ مُصْطَفَى لينْظُرَ فَخورًا إلَى الصِّينيَّة وقَدْ صُفِّفَتْ عَلَيْهَا الحَلْوَى مُقَطَّعَة بقَوَالبَ مُخْتَلفَةِ الأشْكَالِ. وَهَنَّأهُ الجَميعُ.

وَعَادتِ الحَلْوَى من الفُرْنِ، وَجلَسَ الجَماعَةُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا بإِعجَابٍ، كَأَنَّهَا عَمَلٌ فَنِّي عَظيمٌ! وَعَلَّقَ مُصْطَفَى فَرحًا:

– أعْتَقدُ أنِّي نَفَّذْتُ كُلَّ طَلَبَاتِ البَاشَا.

* * *

وَحَمَلَ الصِّينيَّةَ إِلَى دَارِ اليَهُوديَّة راحيلَ، وكَأنَّهُ ذَاهبٌ إِلَى امْتِحَانٍ يَعْرِفُ مُسبَّقًا أنَّهُ نَاجحٌ فيه.

وكَمْ كَانَتْ صَدْمَتُهُ قَاسيَةً حينَ انْفَتَحَ البَابُ، وأطَلَّ وَجْهُ رَاحيلَ المُجَعَّدُ. فَمَا كَادَتْ تَنْظُرُ إِلَيْه حَتَّى زَادَ وَجْهُهَا تَجَعُّدًا وَعُبُوسًا.

وَلَمْ تُكَلِّف نَفْسَهَا حَتَّى عَنَاء النَّظَر إِلَى الحَلوَى التي كَانَتْ ثَمَرَةَ كفَاحٍ طَويلٍ عَامرٍ بالألَم واليَأسِ والإِرْهَاقِ. فَقَد أوْصَدَتِ البَابَ في وَجْهه قَائلَةً:

– لا تُعْجبُني.

وركِبَه عِفْريتُهُ القَديمُ، وَعَادَ إِلَيْه جُنُونُهُ، وَبَدَأ يَرْتَعشُ منَ الهَوَسِ وَالانْفعَالِ وَأخَذَ يَتَرَاجَعُ للورَاء، ليَدْخُلَ في البَابِ برَأسه، وَيَنْقَضَّ عَلَى رَاحيلَ.

وَلَمْ تَكَدْ مُحَرِّكَاتُه تدورُ إِلَى الأمَامِ، حَتَّى أحسَّ بيَدٍ حديديةٍ تُمْسِكُ بقبِّه من الخَلْفِ لتكسِّرَ انطلاقَتَهُ وتَكْبَحَ جِمَاحَه! وكَادَ عنقُ الجلْبَابِ يُخْنُقُهُ لقُوَّةِ انْدفَاعِه، فَجَحَظَتْ عَيْنَاهُ واحْمَرَّ وَجْهُهُ. ولم تَبْقَ في مُخِّه فكْرَةٌ غَيْرُ الانْقضَاضِ عَلَى صَاحِبِ اليَدِ التي أمْسَكَتْ بقبِّه وتَمْزِيقهِ إرْبًا إرْبًا وكَنْسِ بَقَايَاهُ إِلَى البَالُوعَة!

وَمَا كَادَ يَرَى صَاحِبَهُ حتَّى تَغَيَّرَ رَأيُه. كَانَ (أبا العربي المَعَكْرط) يَقِفُ خَلْفَهُ، كَصَخْرَة جَبَلِ طَارقٍ، مُمْسكًا بقُبِّه، فقَالَ:

– الْحَمْدُ للَّه عَلَى مَجيئي! وإلاَّ كُنْتَ فَعَلْتَ بنفسكَ مَا لا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ. تعَالَ.

وَأطْبَقَ قَبْضَتَهُ الشَّهيرَةَ على كُوعِه وَذَهَبَا ومُصْطَفَى يَحْمِلُ الصِّينيَّةَ على يَدِه، ويُفَكِّرُ في مَصيرِه، بَعْدَ الصَّدْمَة الجَبَّارَة التي كَالَتْهَا لَهُ اليَهُوديةُ رَاحيلُ.

وَجَاءَه صَوْتُ (أبا العربي).

– يَا وَلَدي، الأحْسَنُ لَكَ أنْ تَتَعَلَّمَ التَّفْكيرَ قَبْلَ الْعَمَلِ،

وَتَنْظُرَ بَعيداً حَتَّى تُقَصِّرَ الطَّرِيقَ إِلَى غاياتِكَ، وَلَوْ بَقيتَ هَكَذا كَالعَنْزَةِ الحَمْقَاءِ، فَسَيَكُون مَصيرُكَ المَجْزَرَة.

وَرَدَّ مُصْطَفَى بَاكياً بقَهْرٍ:

- وَلَكِنْ مَاذَا أفْعَلُ؟ بَعْدَ كُلِّ الْمَتَاعِبِ التى أحْتَمِلُها والإِهَانَاتِ وَالحَبْسِ وكُلِ شَيء، تَقُول لي الكَافِرةُ باللّه إنّ الحَلْوَى لا تُعْجِبُهَا؟!

- يَصحُّ أنَّهَا لَمْ تُعْجِبْهَا.

- وَلَكنَّهَا لمْ تُلْق عَلَيْهَا ولَو نَظْرَةً عَابِرةً، كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيَّ أنا طُوالَ الوقْتِ بِتَشَفٍّ وحِقْدٍ.

- لا تَنْس أنَّهَا تردُّ لَكَ عُمْلَتَكَ القَديمَةَ.

وأنْشدَ ضاحكًا: اللَّعباتْ والقَلْباتْ. واشْنُو واشْنُوا؟

وانْسَجَمَ في قَهْقَهَةٍ بَطيئةٍ كانَتْ تَهزُّ أطْرَافَهُ المُكْتَنزَةَ.

- اليَهُودُ لا يَنْسونَ ولا يغْفِرونَ!

* * *

وجَلَس مُصْطفى وسطَ عائلةِ (أبا العربي) التي احْتَضنتْهُ الآنَ، وتبنَّتْ مُشْكلتَه بإِيحاءٍ خَفيٍّ منْ عَبلةَ التي عطَفتْ

عليه، وسكَتَ الجميعُ، وهم ينظرونَ إلى صينيَّةِ الحلوى.
وَقضمتْ الأمُّ من قطعةٍ لتَذوقَ طَعْمَهَا، ففوجئتْ بجودَتِها.
فقالتْ:

- اسمعْ يا مصطفى، ماذا لو اشْترينَا منْكَ هذه الحَلْوى.
وأعطيْنَاكَ دقيقًا آخرَ وما يَتْبعُه لعَجْنِ حلْوى أخْرَى قدْ تُرضِي اليهُوديةَ.

- ولكنِّي لا أعْرفُ نوعًا آخَر، وهي تُريدُ هذا النَّوْعَ بالذَّات، ثُمَّ إنَّها لم تُلْقِ عليها ولوْ نظْرة! في نِيتِها فقط أن تُعذِّبَني. أنَا مُتأكِّدٌ.

وتَدخَّل أبا العربي:

- ومعَ ذلكَ فلا بُدَّ من المحَاولةِ مَرَّة أخرى، وسأذهبُ مَعك هذه المَرَّةَ عندَها، لأتأكَّدَ من أنَّها ستتذوَّقُها قبْلَ أن ترفُضَ.

وقبِلَ مصطفى عَلى مَضض. ولكنَّ ابتسامَةً حُلْوةً من عبلةَ لم تلْبث أن أشاعتْ الدفءَ والحُبور في نَفْسه، وأنْستْهُ غَضبَه الذي لمْ ينْفجرْ.

* * *

وفي الصَّباحِ، جاء أبوه لزيارته بمجرَّدِ وصولِه من المناوراتِ الحربيةِ التي أبْعدتْه عن عائلته عدَّة أيَّامٍ. دخل عليه في حُلَّته العسكريةِ، ووقفَ ينظُر إليه وهو قاعدٌ على الكرسِيِّ الخشبيِّ.
وبمجرَّد ما وقعتْ عين مُصطفى علَى والدِه أجْهشَ بالبُكاءِ لسببٍ لا يعرفهُ. فلم يملكِ القايدُ إلا أن يقتربَ من ابنهِ ويُربِّتَ علَى خدِّه ورأسِه مواسيًا، وبعْد بضْعِ دقائقَ جَاءتْ أُخْتُه بفَطورِه فتركهُما، وخرجَ ليَرى البَاشا.

وحين عاد منْ عنده قال لمصطفى بحزْم:

– بعْد جهْد جهيد استطعتُ إقناعَ الباشا بخروجك من الحبْسِ، وذهابِك إلى البيْتِ للنَّوم باللَّيلِ فقطْ. أمَّا موضوعُ حلوى اليهُوديَّةِ فأنا موافقٌ مع الباشا على رأيِه، وأن تضعَ نفْسَك كلَّ صبَاحٍ تحْت أمْرِ (أبا العربي) حتَّى تُصفِّيَ حِسابَك معهَا.

وخرجَ. ودخلَ بعْده (أبا العربي المعكرط)، فأشارَ لمصطفى برأسِه أنْ يذْهبَ إلى دَاره. وفَهمَ مصْطفَى فقام يَلُفُّ لحافَهُ ويربْطُه ويُسلِّمُه لأخْته، ثمَّ خرج يعدُو نحْوَ دَار (أبا

العربي) حيثُ كانتْ عبْلةُ في انتظاره بجَميع أدوات العجين.

ولمْ يجِدْ صعوبةً، هَذه المرةَ، في تتبُّع الخُطْواتِ الأساسيَّةِ والمقَاييسِ المطلُوبةِ لصُنْعِ (البِسْكوتُّشو) كما كانتْ تلكَ الحلْوى تُسمَّى.

وفي الظُّهْر، عادَ مصطفى بالصِّينيَّةِ من الفُرْنِ، وعرضَها على عبْلةَ وأمِّهَا فأُعجِبَا بها، وعلَّقتِ الأمُّ بأنَّها أحسنُ من الأولَى.

* * *

وحينَ عَاد (أبا العربي) عايَن الصينية، وشمَّ رائحةَ الحلْوى، وأشار لمُصْطفَى برأسه أن يَحْمِلها ويتْبعَهُ.

وطرقَ (أبا العربي) بنفْسِه بابَ دارِ راحيلَ ففتحتْ وخَرَجتْ مُرحِّبةً به. وما كادتْ تَرَى مصطفى حتَّى اكْفهرَّ وجْهُها وعَبَستْ، ودخَل (أبا العربي) إلى وسطِ الدَّارِ، وأشار إلَى مصْطَفَى أن يتْبعَهُ بالصِّينيَةِ ففعلَ وهو يَتفَادى نظرةَ اليهُوديَّةِ الحاقدةِ، وقال :

– راحيلُ، لعلَّ الحلْوى التي صنعَ لك مُصطفى بالأمْس لَم

تكنْ كمَا يجبُ، أمَّا الآنَ فأعْتقدُ أنَّها كما تُحبِّين وتَرْضَيْن، وما عليْكِ إلا أن تذُوقيها.

وتقدَّمت راحيلُ نحوَ الصِّينيةِ والاشمئْزازُ بادٍ علَى وجْهِها، فاستأنفَ أبا العربي:

- مصطفَى ولد القايد ندِمَ كثيرًا علَى مَا فعلهُ بصينيَّتك، وهوَ يتعهَّدُ ألاَّ يعودَ أبداً إلى عملِ ذلك، أليس كذلك يامُصطفَى؟

وحرَّك مصطفَى رأسَه كارهًا، وهو ينْظرُ إلى الأرْضِ، ويظْهرُ أنَّ راحيلَ لَم تسمَعْ شيئًا من ذلك؛ فقدْ كانتْ تقترِبُ من الصينيةِ كاليهوديٌ المرغَمِ على دخُول الجَامِع.

وفي النِّهايةِ، مدَّتْ يداً معروقةً نحْو الصِّينيَّةِ، فالْتقطتْ قطْعةً، ورفعَتْها نحْو فَمِهَا، وبصُعوبَة بليغَةٍ قَضَمتْ منْها قضْمةً صغيرةً، وعادَتْ إلى بَصْقِها على الأرْضِ حالاً.

- لا لا لا. ليْستْ هذه حلْوايَ!

وتدخَّل (أبا العربي).

- طبْعًا ليستْ حَلْواكِ. ولن تكونَ في مثْلِ لذَّتِها وحُسْنِ

طعْمِـهـا، ولكنَّهـا مُـحـاولةُ وَلدٍ لمْ يدْخُلِ المطبخَ قطُّ. فكيْفَ تُقارنينَهُ بك؟

فرفعتْ يدها لاغيةً جدلَهُ:

- أنْت تذْكرُ جيِّداً ما قالهُ الباشا يا (أبا العربي). لا بُدَّ للْحَلْوى أن تُرْضيَنَي، وهَذه لا تُرْضيني والسَّلام.

فأشار أبا العربي لمصطفى أنْ يحْملَ صينيتَه وخرجا.

ومَا كادَ يبْتَعِدُ عنْ مرْمَى مَسْمَعِ راحيلَ حتَّى علَّقَ:

- أرأيتَ يا بني كيفَ حكَّمْتَ في رقبَتك يهوديةً عجوزاً شمطاءَ لا تحمِلُ في قَلْبِها للمُسْلمين إلاَّ الكراهيةَ والمَقْتَ. لماذا؟!

وأجْهشَ مُصطفَى باكيًا من الكبْتِ والقَهْرِ. وألْقيَ في رُوعه أنَّه سيعيشُ عبْداً لليهُودية الحَاقدة طوال حياته.

وسمَحَ لهُ (أبا العربي) ذلكَ المساَء أن يذْهبَ إلى أهْلِه مبكِّرًا.

* * *

وفي الصَّباح، كان يقفُ على بابِ (أبا العربي) لتسْتقْبلَه عبْلةُ بفرحٍ صبياني.

وفي الظُّهرِ عادَ مرَّة أخرَى، يجرُّ ذيولَ الخيْبة من دار اليهوديَّة، وثار (أبا العربي)، وصاحَ:

ـ خَلاص! هَذه آخرُ مرَّة! سأخْبرُ الباشَا!

وأحسَّ مصطفَى بقوَّة مركزِه لانْتصارِ (أبا العربي) لَه بهذَا الحَماسِ. ولكنه حين عادَ من الْمحْكمةِ في المساءِ، كانَ أكثرَ فلْسفةً منْه حينَ ذهبَ، فانْتحَى بمصْطفَى جانبًا وقالَ لهُ:

ـ الباشَا ما يزالُ مُصراًّ علَى رأيِه، رغْمَ تدخُّلي لديه، فما عليْنا إلاَّ أنْ نُعيدَ الكرَّة.

* * *

وفي ذلكَ المسَاءِ، اقترحَ عليهَ أخُوه الأصْغرُ بيعَ الحَلْوى أمَام بابِ السِّينما. وبعدَ تردُّد قبلَ الفكْرَةَ.

ومَا كادَ يدُور بصينيَّته أمامَ السِّينما حتَّى اجتمعَ عليْه رِفاقهُ يشتْرون منْه ويُداعبُونَه، وفُوجئَ بحمَاسِهمْ لشرَاءِ حَلْوَاه لاعْتقَادِهم أنَّه شهيدٌ مظلومٌ على يَدِ اليهوديَّة.

وفرغَتْ الصِّينيَّةُ بسُرعَة، وجلسَ مصطفَى معَ أخيه الصَّغيرِ يَحسُبُ فلوسَه، فإذَا هيَ ضِعفُ مَا صرفَه علَى موادِّ

الحلْوَى فتحمَّسَ كثيرًا لاكتشافه التَّجاريِّ العَظيم.

وأصْبحَ رفْضُ اليَهُوديَّة لحلْوَاه عمليةً روتينيَّةً لَم يَعُدْ مصطفَى يحفِلُ لَه أو يتأثَّرُ به.

ولَمْ تعُد تكْفيه صينيةٌ واحدةٌ. فبدَأ يعجِنُ اثنتَيْن، ويقتسمُ أربَاحَه معَ عَبْلةَ التي تحمَّستْ لحمَاسه بهوَايته الجَديدة، وتضاعفَت الأرباحُ، فبدَأ مصطفَى يفكِّرُ في فَتح مقصَفٍ متحرِّك!

* * *

وفكَّر أن يُقاطعَ رُوتينَهُ معَ راحيلَ بشَيء يُزْعِجُها فطرَقَ بابَها وسمِعَها تقفُ خلْفَه كعادتَها وتسألُ:

– مَنْ؟

– مصطفَى ولد القايد.

– لا تعجبُني حلواكَ. اذهبْ.

– لَم آتك بحلْوَى اليوْمَ.

– فماذَا تُريدُ؟

– أريدُ فقطْ أن أشْكُركِ.

وسكتَتِ اليهوديةُ لتحْسُبَ حسابَ عربيٍّ بدَأ يتكلَّمُ لغةَ قَوْمِها، وسمِعَها ترْفعُ رِتاجَ البَابِ وتُوارِبُهُ لتُحمْلِقَ بعَيْنٍ واحدَة مُحاوِلةً كشفَ خُدْعَتِه الجديدة.

- مَاذا قُلْتَ؟!

- قلتُ: جئْتُ لأشكرَك.

- عَلامَ؟

- علَى أنَّكِ علَّمْتِني درْسًا مُهمًّا في صُنْعِ الحلْوَى. لوْلا تلْكَ الصُّدفةُ التَّعِسةُ أو السعيدةُ لا أدْري الَّتي جمعتْ بيْننا لكنْتُ أضعْتُ صَيْفي هذا في اللَّعبِ وارْتكابِ الْموبقاتِ! ولكن الآنَ، وبعْدَ أنْ تعلَّمْت صُنْعَ الحلْوَى، بدأتُ أبيعُها في السُّوق، وأرْبحُ مبالغَ لا بأسَ بها في كُلِّ يوْمٍ. حتّى إنَّني فكَّرْتُ في فتْحِ دُكَّانٍ لبيْعِ الحلْوى؛ لذلك جئتُ أشكرُك.

- هلْ تضْحكُ عليَّ؟

قَالَتْها بتردُّدٍ وارْتيابِ مَن لا يعْرفُ مَا يقولُ. مَنْ فوجِئَ بغَيْرِ ما كان يتوقَّعُ.

- لماذَا أضْحكُ عليْك، اخْرُجي إذَا شئْتِ لترَيْ بعينَيْك

كيْف يُقْبِلُ النَّاسُ على حلْوايَ أمامَ بابِ السِّينما .

وأخْرجَ من جَيبْهِ محفظَةً مَلأَى أوراقًا ماليَّـة .

ـ أنْتَ كذَّابٌ !

ـ انْظُري، أصبحتُ أرْبحُ أكْثر ممَّا يرْبحُ أبي وهو ضابطٌ في الجيْش !

وأقْفلَ المحْفظةَ وأدْخلَها في جيْبه ولوَّحَ بيديْه :

ـ مع السَّلامة ! سأمُرُّ عليك بصينيَّةِ الحلْوَى حين تخْرُجُ من الفُرْنِ لتقُولي لي، للمرَّة الثَّمانين، إنَّها لا تُعجبُك لأذهبَ لبَيْعِها، أصبحْتِ بالنِّسبة لي كَطبيبِ «الكُرْنة» ـ المذْبحِ البلدي ـ لا بدَّ أن يطَبعَ اللَّحمَ قبْل أن يُباعَ !

وانْصرفَ .

ومَا كادَ يلْوي على الشَّارعِ حتَّى سمِعَ صوْتَها منْ خَلفه :

ـ آهْيا، آلولدْ، أجي ! (تعال)

فالتفتَ :

ـ أنَا ؟

ـ نعَم، أنْتَ. تعالَ !

- فعاد إليْها على مهَلٍ حتَّى وقفَ علَى بَابِها فقالتْ:

- ادْخُلْ.

- لا.

- أريدُ أنْ أتكلَّمَ معَك.

- نتكلَّمُ هُنا.

- اسمعْ، لقد فكَّرْتُ في شَيء فيه ربْحٌ لكليْنا.

- ما هوُ؟

- أنْ نشْترِكَ، ونصْنعَ الحلْوى معًا، وتبيعَها أنْتَ.

- أنَا أعْرِفُ كيْف أصْنعُ الحلْوَى.

- تعْرفُ كيْف تصْنعُ نوْعًا واحدًا، وسأعلِّمُك صنْعَ أصْنافٍ أخْرَى شهيَّةٍ، تقومُ أنْتَ ببَيْعها ونقْتسمُ رأسَ المَال والأرْبَاح.

- لا.

- ترْفضُ الرِّبْحَ؟

- أنا أرْبَحُ، أنتِ التي تُريدينَ اقتسامَه مَعي.

- اسمعْ، إذَا قبلْتَ تنازلْتُ عنْ دعْوايَ عنَد البَاشا ضدَّك.

ومطَّ مصطفى شفتَيْه مَكْرًا، ثمَّ دارَ علَى كعْبيهِ حوْل نفْسهِ، وهيَ تنْتظِرُ قرارَه بوَجْهٍ مُتوسِّلٍ، وحاجبيْن مرْفوعَين إِلَى أعْلى. وأخيرًا قالَ:

- لمْ يعدْ يهُمُّني تنازُلُكِ.

- كيفَ؟

- في الحقيقةِ، قدْ يَأتي بنتيجةٍ عكْسيَّةٍ!

- ماذَا تعْني؟

- النَّاسُ يشْترُونَ حلْوايَ لأنِّي مظْلومٌ، وواقعٌ في قبْضَتِك. يُريدُونَ تسْليتي وتَعْويضي عَن حِرْماني منْ حريةِ الصَّيفِ بشراءِ حلْوايَ.

- هُراءٌ وكلامٌ فارغٌ! النَّاسُ لا يعْطِفونَ علَى أحَدٍ، ولا يَرْثونَ لحَالِ أحَدٍ!

- غلطٌ، اليهودُ فَقَط. المسْلمونَ رقَاقُ القُلوبِ.

- ترْفضُ الآنَ عَفْوي؟!

- لا. بَلْ أرْفضُ الخسارةَ في تجارَتي.

- اسمعْ يا مغفَّلُ، أؤكِّدُ لك أنَّكَ سترْبحُ أكثرَ!

- طيِّب... لا أدْري، ولكنْ منْ أجْلِ خَاطِرِ أهْلي سأقْبَلُ عفْوَك وتبْرئتَك لي أمامَ الباشَا، وسأُفكِّرُ في موْضُوعِ الشَّركةِ.

- أنَا الأخْرَى، ندمْتُ علَى قَسْوَتي عليْكَ طَوالَ هَذه المُدَّة، وحِرْمانكَ من عُطْلتك المدرسيَّة، ولكنْ، كَما قُلْتَ بنَفسك، كانَ فيهَا خيرٌ! أليْسَ كذلكَ؟

وبدأتْ تضحكُ مُتَملِّقةً ضَحْكةً منه، فانْفرجَت أساريرُه عن ابتسامةٍ فسارعت هيَ لتقولَ:

- انتظرْ حتَّى أُخْرِجَ شَالي لأذهبَ معَكَ إلى دَار البَاشَا.

العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging